أقوال العرب ومؤلفاتهم
في خصـائص الشعوب والبلدان

الدكتور صالح احمد العلي
رئيس المجمع

المدن وخصائصها في العالم الاسلامي :

وحّدت الدولة الاسلامية البلاد الواسـعة التي إنضوت تحت لوائها وازالت الحواجز القديمة التي كانت بين الدول المتعادية قبل الاسلام ، كما زعزعت النظم الاقطاعية الجامدة ، ونشرت الحرية التي ارتكزت عليها المبادىء الاسلامية وتشبعت بها الهيئـة الموجهة للحكم من الخلفاء والولاة والقـواد العرب ومستشاريهم ، فاباحت بموجبها حرية العمل والتنقل ، وأدت هـذه الحرية والاختلاط الى تمازج مختلف النظم والحضارات ، والى اضـعاف التقاليد المحلية الناجمة عن العزلة .

غير أن تنوع الأحوال والظروف الطبيعية ، وتباين المصالح بين مختلف الأقاليم والأماكن ، وضعف سبل المواصلات والاتصال أدى على مر الزمـن الى بروز خصائص محلية لبعض الاقاليم ، كما ان عدداً من الدوافع السياسية والاجتماعية دفعت بعض هذه الامـاكن الى التفاخر بخصائصـها التاريخية او الطبيعية ، وزاد من قـوة ظهور هـذه الخصـائص محدودية حـرية التنقل والتجارات التي تعين على انتشار المعرفة بتلك الخصائص .

مصادر المعلومات :

وترجع الأصول الأولى لملاحظة هذه الخصائص الى السنوات الاولـى لتكوّن الدولة الاسلامية حين كانت تـرد وفود الامصار الى الخليفة فتعرض أحوال أهلها ، أو تقدم السلع الى الامصار الرئيسة .

ان اول ما روي لنا عن خصائص المدن هي ما ذكرته الوفود ، كذكر وفد البصرة لعمر الأحوال الضنكة لمدينتهم ، أو وصف الخليفة عمر للكوفة تقديراً لأهلها وحثا على الهجرة اليها ، أو وصف بعض الولاة خصائص الأقاليم التي

ولوها ، كوصف عمرو بن العاص لمصر ، هذا فضلا عن رغبة بعض الخلفاء معرفة خصائص الأقاليم والاستفسار عنها كالذي فعله عمر بن الخطاب مع كعب الأحبار .

وقد أدى استقرار الأمصار الى نمو روح الجماعة بين أهلها والى شعورهم بمصالحهم الخاصة المشتركة ، والى طابعهم الخاص المميز لهم عن أهل الامصار الاخرى بالرغم من تشابه أصولهم القبلية والنظم السائدة فيهم . وأبرز ما ظهرت فيه بين الكوفة والبصرة اللتين كان لكل منهما موقف سياسي يخالف الاخرى ، فان أهل الكوفة قاموا بدور كبير في فتوح العراق التي حدثت في خلافة عمر ، وساهموا في المعارضة للخليفة عثمان ، وأيدوا الامام علي الذي اتخذ الكوفة قاعدته ، أما البصرة فلم يقم أهلها بفتوح كبيرة في أوائل خلافة عمر بن الخطاب ، ثم ازدادت فتوحهم في أواخر خلافة عمر وفي خلافة عثمان ، ثم صارت مركزا لمتحدي الخليفة علي الذي قضى عليهم في موقعة الجمل ، ولم يكونوا متحمسين في تأييده ، وكانوا من حيث العموم عثمانية واسهموا في القضاء على المختار في الكوفة .

المؤلفات في الخصائص :

وعندما نشط التأليف والتدوين عند العرب والاقاليم ، كان مما عنوا به تدوين ما تتميز به بعض المدن والأقاليم وعنونوا مادونوه عناوين متعددة، منها «خصائص» و «فضائل» و «مفاخر» و «مثالب» ، ولكل من هذه التعابير مدلول لغوي خاص استخدمه العرب للدلالة على ما يقصدوه ، فكلمة « خصائص » تدل على صفات خاصة تتسم بها المدينة أو الاقاليم ولا يشترط ان تنفرد بها وحدها ، وكلمة « فضائل » يقصد بها ما تميزت به المدينة وخاصة بما يتصل بالدين كقدسية أرضها أو من أنجبتهم من المعنيين بالدين ، أما «المفاخر» فهي وصف لما تميزت به على غيرها من أمور جيدة ، و «المثالب» هي ذكر للعيوب .

ويتصل بهذا الميدان ما روي من «مفاخرات» بين اكثر من مكان تذكر فيه خصائص المكان وميزاته ويشار الى عيوب المكان الاخر ونقائصه .

والجوانب التي تذكر في هذه المدونات تعبير عن المثل العليا المقبولة عند الناس ، وهي بلا ريب غير ثابتة وانما منوعة ومتطورة ، وقد لا تقتصر على جانب واحد ، فتشمل عدة جوانب ، فقد تشمل خصائصها الجغرافية وأرضها ، ومنتوجاتها ، ورجالها ، واسهامها في الفكر والحضارة ، أو في المصنوعات التي تنتجها ، وهي تعبر عن الاوضاع القائمة عندما ابديت عليها الملاحظات ، ولذلك فان تحديد مصدر القول وتعيين زمنه هو أمر مهم ، علما بأن كثيراً من المظاهر التي ذكرتها النصوص استمرت أمداً غير قصير .

والابحاث في خصائص البلدان ليست مرادفة لخصائص الشعوب ، فأن هذه تبحث في الشعوب حيثما كانوا ، فهي لاتقتصر على مدينة أو تنحصر في مكان ، اما خصائص المدن والاقاليم وترتكز على المكان وتبحث ما تميز به من منتوجات ومصنوعات ، ويتطرق بعضها الى خصائص أهله ورجاله المتأثرة بالأحوال الاقليمية وليس بالموروثات العرقية ، غير أنها في تطرفها الى ذلك تدرسها ضمن نطاقها العام للمكان ، وبذلك تتميز عن دراسة مناخر الأفراد أو مثالبهم والجماعات التي تدرس لذاتها وليس لصلتها بالمكان .

تعبر مدونات الخصائص عن « الاقليمية ، وعن تميز كل منطقة من مدينة أو اقليم بسمات معينة على اختلاف أهلها عن الأحوال في المناطق الأخرى ، وأغلبها تعبر عن التباين والتنافس المحلي السلمي .

وصلتنا نصوص غير قليلة ، بعضها مقتصر على خصائص مدينة معينة ، وبعضها مقارنات بين مدينتين ، تذكر فيها خصائص كل منها ، وبعضها يجمع خصائص عدة مدن . وأغلب ما وردنا في ذلك يتعلق بما لأهل كل مدينة من مميزات خلقية ، أو ما تميزت به من منتوجات زراعية أو حيوانية أو صناعية ؟ وبعضها يذكر من اشتهر من علمائها ، ولاريب في أن هذه

المعلومات بلدانية ، غير أنها تنفرد بسمات خاصة تميزها عما كتبه البلدانيون والجغرافيون الذين ألفوا كتبا عامة ذكروا فيها أوصاف عدد من المدن وما تميزت به كل منها من أحوال طبيعية أو سكان أو منتوجات دون أن يقدروا أهمية هذه المنتوجات بالنسبة للعالم الاسلامي مما تهتم به النصوص التي ذكرت خصائص المدن •

ان بعض هذه النصوص يمكن تحديد تاريخه من معرفة قائلها أو أقدم مصدر ذكرها ، غير أنه يصعب تحديد عدد منها ، خاصة وأن المؤلفين العرب إهتموا بنقل النصوص المتقنة التي تروق لهم مع اغفال المصدر الذي نقلوا عنه، ولهذا الاغفال أثر في صعوبة تحديد تطور هذه الخصائص، فمن المعلوم ان المدن ، شأن أية مؤسسة أخرى ، تعرضت لتطورات واسعة من النمو والضمور، ومن ميادين الاهتمام ، ومعرفة القائل الاول للنص يحدد زمن ظهور هذه الخصائص التي قد لاتبقى ثابتة الى الأزمنة المتأخرة التي تنقل كتبها تلك النصوص من دون تحديد زمنها أو ماحدث عليها من تطورات تالية ، وأكثر ما روي عن العرب وصف أمصارهم وخاصة الكوفة والبصرة ، أما غير العرب فرووا بجانب ذلك خصائص مدن ايران وأقاليمها بجانب وصفهم لأحوال العرب•

وأغلب النصوص التي وردتنا قصيرة محكمة ، يذكر كل منها ما للمدينة أو المدن من خصائص بعضها مميزات وبعضها عيوب، ويرجع أقدمها الى أقوال نقلت عن أفراد أبرزهم الأحنف بن قيس ، وكعب الأحبار ، وابن القِرّية وخالد بن صفوان ومحمد بن عمير العطاردي وابي بكر الهذلي وابن عياش وقد نقل كثيراً من أقوالهم ابن قتيبة في كتابه «عيون الأخبار» والجاحظ في عدد من كتبه وخاصة كتابي « البلدان » و « البيان والتبيين » ، وابن الفقيه الهمداني في كتاب « البلدان » والنويري في كتاب «نهاية الارب» •

وردت في المصادر ثلاث مفاخرات في أقاليم المشرق ، هي مناظرة بغداد وهمدان ، وقد نقلها ابن الفقيه في كتابه «البلدان» (٢٢٧) ، والمفاخرة بين

بغداد وإصبهان وهي تكون قوام كتاب «حكاية ابي القاسم» التي ينسبها عبود الشالجي الى التنوخي ، ومفاخرة ابن زولاق بمصر في كتابه عن «الموازنة بين مصر وبغـداد» .

أما المفاخرة بين الكوفة والبصرة ، فقوامها نصوص متفرقة تختلف في سعتها ومادتها ، منسوبة الى رجال من أهل المدينتـين عاش جلهـم في زمـن الراشدين والأمويين ، وفيها معلومات زاخرة عن الأحوال العمرانيـة وعـن اسهامها في الفتوح والحركات السياسية والفكرية ؛ وبالنظر لأهمية معلوماتها وتفرقها ، فقد رأينا ان نفردها بفصل خاص .

وذكر ابن النديم في كتابه «الفهرست» عددا من كتب فضائل البلـدان ومنها «فضائل بغداد وصفتها» ليزدجرد بن مهبنداد (١٨٥) و « خصـائص بغداد وأخبارها» لأحمد بن الطيب السرخسي (٣٦٦) .

وذكر أيضا «كتاب» مفاخرة أهل البصرة وأهل الكوفة للمدائني (١٥٢)، و «فخر أهل الكوفة على أهل البصرة» للهيثم بن عـدي (١٤٦) ، وفضـل المدينة على مكة (٢٣٨) ، و «فضائل مكة على سائر البقاع» لابي زيد البلخي (١٩٩) ، و«فضائل مصر» للجمحي (١٦١) وكافة هذه الكتب مفقودة ولم يشر اليها أحد سوى كتاب يزدجرد بن مهبنداد الذي نقل كثيرا منه ابن الفقيه في الفصل الذي كتبه عن بغداد في كتابه «البلدان» ، كما ألمح الى بعض محتواه ابن زولاق في كتابه عن فضائل مصر ، غير ان في مقدمات بعض كتب المـدن نصوص عن خصائص المدينة موضوعة البحث ، كالذي نجده في تاريخ بغداد للخطيب ، وكتاب البلـدان لليعقوبي و «فضـائل اصبهـان» للمـافرخي ، و «أخبار أصفهان» لابي نعيم .

وذكر الطوسي في كتابه «الفهرست» كتابين عنوان كل منهما «فضـل الكوفة» أحدهما لأحمد بن محمد بن عقدة الحافظ (٢٨) والثاني لعلي بـن الحسين بن فضلة (٩٥) ، وذكر أيضا كتاب «فضل قم والكوفة» لسعد بـن

عبدالله القمي (٧٥) .

وأورد كل من ابن الفقيه الهمداني في كتابه «البلدان» ، والخطيب البغدادي في المقدمة الخططية لكتابه « تاريخ بغداد » نصوصاً متشابهة عن بغداد وما قيل فيها من مدح وذم .

ونشير الى ما كتبه عن العراق وبغداد كل من اليعقوبي في كتاب البلدان، والخطيب البغدادي في مقدمة كتابه «تاريخ بغداد ، والاشارات التي ذكرها ابن ابي الحديد عن خصائص العراق في كتابه «شرح نهج البلاغة» .

وعن مصر يضم كتاب نشر بعنوان «فضائل مصر» منسوب الى الكندي، معلومات تطابق ما في كتاب منسوب لابن زولاق الذي ذكر ابن ظهيرة في كتابه «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة» ان ابن زولاق قال في كتابه الكبير في تاريخ مصر ، هذا كتاب عملت فيه عملا من عيون أخبار مصر وفضائلها وضيعها كتبت بالموازنة بين مصر وبغداد (٧١) وذكر ابن ظهيرة في مكانين من كتابه اسم كتاب ابن زولاق «الموازنة بين مصر وبغداد» (٣١ ، ٢٤٣) وقد نقل ابن ظهيرة عن ابن زولاق معلومات كثيرة عن مدن مصر ومنتوجاتها ، وهي معلومات لاتوجد في مخطوطة باريس من كتاب ابن زولاق ، وهي النسخة الوحيدة الباقية فيما أعلم .

بحث الجاحظ في كتابه (التبصر بالتجارة) منتوجات عدد من الأقاليم ، ومنها الجواهر النفيسة (٨ـ١٢) ، والطيب والعطور (١٢ـ١٣) والمنسوجة (١٤ ــ ٢٠) وما يجلب من البلدان من طرائف السلع والامتعة وبحث في كتاب « البلدان » الذي وصلنا مختصره عن فضائل قريش وآل أبي طالب ، ثم بحث في مكة ، والمدينة ، ومصر ، والكوفة ، والبصرة .

وبحث عدد من البلدانيين ، وأبرزهم اليعقوبي ، والاصطخري ، وابن حوقل ، والمقدسي ، وابن الفقيه . اقاليم بلاد العالم الاسلامي وكثير من مدنهم ، وتميز اليعقوبي باهتمامه في المدن ببحث خططها وتركيبها السكاني ،

وبذكر بعض منتوجاتها • غير أن المطبوع من كتاب اليعقوبي معتمد على نسخة فريدة ناقصة ، ولم تكتشف حتى الآن مخطوطة اكمل منها ، او نصوص منقولة عنها وفيها معلومات تضيف الى المطبوع •

اما الاصطخري فقد وصف في كتابه « المسالك والممالك » اقاليم بلاد الاسلام وكثير من مدن كل اقليم ، وفيه اشارة الى منتوجات الاقاليم ، وصناعة وسكان بعض المدن التي ذكرها ، وكان كتابه معتمد ابن حوقل الذي نقل مادة الاصطخري مع اضافات عن الموصل والمغرب ، وقد ارتاب عدد من الأقدمين بصحة نسبة الكتاب الى الاصطخري ، وعزوه الى ابي زيد البلخي، ولكن هذا لا يمس صحة المعلومات التي حددت فيه والتي تمثل الاحوال في اواسط القرن الرابع •

ونظم المقدسي مادة كتابه « أحسن التقاسيم » على اساس الاقاليم • وذكر معلومات غنية عن احوال ومنتوجات عدد كبير من الاقاليم والمدن التي وصفها •

اما ابن الفقيه فقد وصلتنا من كتابه « البلدان » نسختان غير كاملتان طبع احداهما دي غوية ، وطبع الثانية بالتصوير فؤاد سزكين عن اصلها الفريد المحفوظ في مشهد وتتفق النسختان في بعض المعلومات ، وتنفرد كل منهما بمعلومات عن خصائص بعض البلدان ، وخاصة البصرة ، والكوفة ، وبغداد ، وواسط ، وسر من رأى • وقد كشفت قطعة صغيرة منه في احدى مدن اسيا الوسطى ، كما نقل عنه ياقوت نصوصاً لا توجد في النسختين المطبوعتين •

ومع ان كتاب الفقيه في البلدان ، الا انه لم يرتب مادته تبعاً للاقاليم ، كما انه اورد معلومات واسعة عن خصائص الشعوب وبعض المدن والمناظرات الاولى بين بعض المدن ، وخاصة بين الكوفة والبصرة ، وبين بغداد وهمدان •

بحث ابن الفقيه في خصائص بعض الامم ومنها الروم والنوبة ، والبجة، والترك ، والهند وبعض شعوب اوربا ، كما ذكر معلومات واسعة عن بعض

اقاليم ومدن العالم الاسلامي بما في ذلك مدن اقاليم المشرق ، والعراق ، وجزيرة العرب ، والمغرب واورد كثيراً من المفاخرات بين البصرة والكوفة ، وعجائب بعض المدن ، والمنتوجات الزراعية والصناعية ، وما يضاف وينسب الى بعض المدن والاقاليم ، وخصائصها* .

وبحث الثعالبي في « لطائف المعارف » خصائص ومحاسن ومساوىء عدد من أقاليم ومدن العالم الاسلامي ، كما بحث في كتابه « ثمار القلوب » ما خص به عدد من اقاليم ومدن العالم الاسلامي ، وخاصة مدن شبه جزيرة العرب ، وما خصت به بعض هذه الاقاليم والمدن من احوال ومنتوجات . ونقل فيما اورده ، كثيراً عن الجاحظ وخاصة من كتابه « البلدان » .

وبحث النويري في كتابه (نهاية الأرب) خصائص ومنتوجات عدد من الأقاليم ومعلوماته فيها تطابق تقريبا ماذكره الثعالبي في «لطائف المعارف» عنها مما يدل على ان الثعالبي كان مصدر النويري الذي لم يضف شيئاً على ما اقتبسه .

وخصص عمر بن الوردي في كتابه « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » فصلا في خصائص البلدان وذكر فيه خصائص كل من الشام ومصر واليمن والبصرة والكوفة وبغداد والاهواز وفارس وأصفهان والري وطبرستان وجرجان ونيسابور وطوس وهراة ومرو وبلخ وسجستان وبست وغزنة والهند وسمرقند والصين والتبت وخوارزم .

تباين خصائص أهل الآقاليم وتناقضها :

ترجع أقدم النصوص التي وصلتنا عن خصائص المدن والأقاليم الى زمن الخليفة عمر بن الخطاب وتنسب الى كعب الأحبار ، فقد ذكر النويري « ان

* انظر تفاصيل أوفى في كتاب « الأدب الجغرافي عند العرب » لكراتشوفسكي وكتاب الجغرافية البشرية للعالم الاسلامي « لميجيل » .

عمر بن الخطاب سأل كعب الأحبار عن طبائع البلاد وأخلاق سكنتها ، فقال : ان الله تعالى لما خلق الاشياء جعل كل شيء لشيء :

فقال العقل أنا لاحق بالشام فقالت الفتنة وأنا معك

وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك

وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية ، فقالت الصحة وأنا معك(1) .

ونقل عن محمد بن حبيب ما يشبه هذا القول من دون أن يحدد قائله أو زمنه

فقال «لما خلق الله الخلق جعل معهم عشرة أخلاق : الايمان ، والحياء ، والنجدة ، والفتنة ، والكبر ، والنفاق ، والغنى ، والفقر ، والذل ، والشقاء.

فقال الايمان أنا لاحق باليمن ، فقال الحياء وأنا معك

وقالت النجدة أنا لاحقة بالشام ، فقالت الفتنة وأنا معك

وقال الكبر أنا لاحق بالعراق ، فقالت النعمة وأنا معك

وقال الغنى أنا لاحق بمصر ، فقال الذل وأنا معك

وقال الفقر أنا لاحق بالبادية ، فقال الشقاء وأنا معك(2) .

وروى المدائني ان الحجاج هو الذي قال : لما تبوأت الأمور منازلها

قالت الطاعة أنزل الشام قال الطاعون وأنا معك

وقال النفاق أنزل العراق قالت النعمة وأنا معك

وقالت الصحة أنزل البادية قالت الشقوة وأنا معك (3) .

يروى ابن الفقيه عن عمرو بن أوس أن عمر بن الخطاب أراد أن يقدم الى الكوفة فكتب اليه كعب الحبر : يا أمير المؤمنين لا تعجل فانه قد بلغني أن بها الداء العضال وبها تسعة أعشار الشر ، وبلغني أنه اذ كل شيء ينطق أجتمع ثمانية أشياء في واد . الايمان والحياء والهجرة والموت والفناء والعي

---

(1) نهاية الأرب ١٩٢/١ .

(2) نهاية الأرب ٢٩٢/١ .

(3) عيون الاخبار ٢٢٢٨ ، النويري ٩٢/١ .

والشقاء والصحة ، فقال بعضهم لبعض تعالوا تتصرف في الارض فتفرقوا في البلاد :

فقال الايمان أنا الحق بأرض اليمن ، فقال الحياء أنا معك
قال الهجرة أنا الحق بالشام ، قال الموت أنا معك
قال الغناء أنا الحق بأرض العراق فانها أرض واسعة ، فقال الغنى أنا معك .
قالت الصحة ما تركتم لي شيئا من البلاد الا وقد أخذتموه ، قال الحق بالبرية ، فقال الشقاء : أنا معك (٤) .

وروى المدائن عن عاصم في اسناد له بعض هذا القول ولم يوضح الاسناد فقال :

قال الطاعون لنا الحق بالشام ، فقال الخصب انا معك
وقال الجوع انا الحق بأرض البادية ، فقالت الصحة وأنا معك
وقالت النعمة أنا الحق بأرض العراق ، فقال السقم أنا معك (٥) .

اقتصرت بعض النصوص على ذكر ما تميزت به بعض الامصار وكان أقدمها متصوراً على أقاليم الحجاز والشام ، والعراق ، غير أن بعضها شمل خصائص الأمصار العربية ، ثم امتدت بعض النصوص لتشمل أيضا خصائص أقاليم بلاد العرب ، ثم الأقاليم المفتوحة .

ومن أقدم هذه النصوص ما رواه محمد بن حبيب عن ابن مورع الكلبي عن صعصعة بن صوحان ، حيث قال « دخل صعصعة بن صوحان العبدي على معاوية فقال له يا ابن صوحان أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها ، فأخبرني عن أهل البصرة واياك والحمل على قوم لقوم ، قال : البصرة واسطة

(٤) البلدان ١٨٦ — ٧ .
(٥) التعازي ٨٢ ، ثمار القلوب ٥٤٧ .

العرب ، ومنتهى الشرف والسؤدد ، وهم أهل الخطط في أول الدهر وآخره وقد دارت بهم سروات العرب كدوران الرحا على قطبها » .

قال فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال : قبة الاسلام ، وذروة الكلام ، وفطان ذوي الأحلام ، الا ان بها أخلاقاً تمنع ذوي الأمر الطاعة وتخرجهم عن الجماعة وتلك أخلاق ذوي الهيئة والقناعة .

قال اخبرني عن أهل الحجاز ، قال : أسرع الناس الى فتنة ، واضعفهم عنها ، وأقلهم عناء فيها ، غير أن لهم ثباتاً في الدين ، وتمسكا بعروة اليقين ، يتبعون الأئمة الأبرار ، ويخلفون الفسقة الفجار(٦) .

روى ابن الفقيه جواب ابن القرية على تساؤل الحجاج عن أقاليم جزيرة العرب وفيها بعض الاختلاف عما رواه ابن شاكر ، فذكر :

قال فأخبرني عن اليمامة ، قال : أهل جفاء وجَلَد وثروة وعدد وفدّ وكرّ

قال فأخبرني عن عمان : قال : حرّها شديد ، وصيدها عتيد ، وأهلها بهائم ليس بها رائم ،

قال فأخبرني عن البحرين : قال كناسة بين مصرين : كثيرة جبالها ، جهلة رجالها ،

قال فأخبرني عن مكة : قال : رجالها علماء ، وفيهم جفاء ، ونساؤها كساة عراة .

قال فأخبرني عن المدينة ، قال : رسخ العلم فيها ثم علا وانتشر في الآفاق

قال فأخبرني عن اليمامة ، قال: أهل جفاء وجَلَد وثروة وعدد ، وفرّ وكرّ

قال فأخبرني عن البصرة : قال : حرها شديد ، وماؤها مالح ، وحربها صالح ، مأوى كل تاجر وطريق كل عابر

(٦) مروج الذهب ٣/٢ .

قال فأخبرني عن واسط ، قال : جنة بين حماة وكنة تحسدانها ودجلة والزاب يتناوبان عليها

قال فأخبرني عن الكوفة ، قال : سفلت عن برد الشام ، وارتفعت عن حر اليمن ، فطاب ليلها وكثر خيرها

قال فأخبرني عن الشام ، قال : عروس في نسوة جلوس كلهن يزفنها ويرفدنها

وذكر أنه قال عن مكران « ماؤها وشل ، وتمرها دقل ، وسهلها جبل ، ان كثر بها الجيش جاءوا ، وان قلوا ضاعوا

وذكر ان خراسان « ماؤها جامد ، وعدوها جاهد ، وبأسهم شديد ، وشرهم عنيد [٧] .

ومما يرجع الى زمن الحجاج بن يوسف نص ينسب لزادان فروخ أجاب فيه الحجاج عندما قال له «اخبرني عن العرب والأمصار ، فقال اصلح الله الأمير : أنا بالعجم أبصر مني بالعرب ، قال لتخبرني قال فسل عما بدا لك :

قال أخبرني عن أهل الكوفة ، قال : نزلوا بحضرة أهل السواد فأخذوا من ضيافتهم وسماحتهم

قال فأهل البصرة ، قال : نزلوا بحضرة الخوز فأخذوا من مكرهم وبخلهم

قال فأهل الحجاز ، قال نزلوا بحضرة السودان فأخذوا من حمقة عقولهم وطربهم

فغضب الحجاج فقال له : اعزك الله لست حجازيا انما أنت رجل من أهل الشام

قال فأخبرني عن أهل الشام ، قال : نزلوا بحضرة الروم فأخذوا من ترفهم وصناعتهم وشجاعتهم [٨]

---

(٧) البلدان ٩٢ ـ ٩٣ .

(٨) البلدان لابن الفقيه ١١٤ .

ولعل هذا القول هو الذي نقله النويري دون ان يذكر مصدره فقال :

جاور أهل الشام الروم فأخذوا عنهم اللؤم وقلة الغيرة
وجاور أهل الكوفة أهل السواد فأخذوا عنهم السخاء والغيرة (٩)
وروى المدائني أن عبدالله بن عمر قال :
أهل الحجاز أسرع الناس الى فتنة
وأهل الشام أطوع الناس لمخلوق في معصية خالق
وأهل العراق أسأل الناس عن صغيرة ، وأركبهم لكبيرة ، يسألون عن قتل جرادة وقد قتلوا ابن بنت نبيهم(١٠) .

وروى عن سعيد بن عبدالعزيز وسليمان بن موسى قولهم : إذا كان علم الرجل حجازيا ، وخلقه عراقيا ، وطاعته شامية ، فناهيك به (١١) .

وأشار الجاحظ الى فقه الحجاز ، ودهاء العراق وطاعة اهل الشام(١٢) .
وقال سفيان بن عيينة : اذا أردت الحديث الصحيح الاسناد الجيد فعليك بأهل المدينة ، واذا أردت النسك فعليك بأهل مكة

واذا أردت المغازى فعليك بأهل الشام(١٣)
ويروى أن أبا جعفر المنصور قال لمالك :
وأما أهل الشام فأهل جهاد وليس فيهم كثير علم
وأما أهل الحجاز ففيهم بقية العلم ، وأنت عالم الحجاز(١٤) .
نسبت الى أيوب بن القرية أقوال أجاب بها الحجاج في وصف أهل

(٩) النويري ١/٢٩٥ .
(١٠) انساب الاشراف ٥/٣٧٨ .
(١١) تاريخ دمشق ١/٣٠٨ .
(١٢) لطائف المعارف ٦١/١٥٩ ، ثمار القلوب ٢٤٦ .

أقاليم اسلامية ذكر فيها الأقاليم الأربعة التي ذكرتها المصادر السابقة ، وأضاف اليها ثلاثة أقاليم من الجزيرة هي عمان والبحرين واليمامة ، كما اضاف اليها الجزيرة وفارس ، فقال :

أهل الحجاز أسرع الى فتنة ، وأعجزهم عنها ، ورجالها حفاة ، ونساؤها كساة عراة

وأهل اليمن أهل سمع وطاعة ، ولزوم الجماعة
وأهل عمان عرب استنبطوا
وأهل البحرين نبط استعربوا
وأهل اليمامة أهل جفاء واختلاف اراء
وأهل فارس أهل بأس شديد وعز عتيد
وأهل العراق أبحث عن صغيرة ، وأضيعهم لكبيرة .
وأهل الجزيرة أشجع فرسان وأقتل للاقران
وأهل الشام أطوعهم لمخلوق ، وأعصاهم لخالق
وأهل مصر عبيد لمن غلب ، اكيس الناس صغارا ، واجهلهم كبارا

ان هذه النصوص تختلف في عدد الاقاليم التي ذكرتها ، وفي خصائص أهلها فرواية النويري قصرت على الشام ومصر ، والبادية ، ورواية ابن الفقيه أغفلت مصر ، وذكرت اليمن والعراق ، اضافة الى الشام والبادية ، ورواية ابن حبيب شملت اليمن ، والشام ، والعراق ، ومصر والبادية والصفات التي ذكرها ابن حبيب عشرة متناقضات لكل اقليم متناقضان .

ويتفق من ذكر البادية ان فيها الفقر والشفاء ، وان مصر فيها الغنى والذل ، واليمن فيها الايمان والحياء . اما الشام فان نص ابن الفقيه يذكر ان

(١٣) تاريخ دمشق ٣١٦/١ ، البلدان للهمذاني ٤٨٧ .
(١٤) تاريخ دمشق ٢٧١/١ .

فيها الهجرة والموت ، ونص النويري أن فيها العقل والفتنة ، أما ابن حبيب فينص ان فيها النجدة والفتنة .

وأما العراق فان نص ابن الفقيه يذكر ان فيه الغني والعي .

روى عن عبدالله بن عباس (رض) انه قال :[١٥]

ان الله تعالى خلق البركة عشرة اجزاء ، فتسعة منها من قريش ، وواحد في سائر الناس

وجعل الكلام عشرة أجزاء فتسعة منها في العرب وواحدة في سائر الناس
وجعل الغيرة عشرة أجزاء فتسعة منها في الاكراد وواحدة في سائر الناس
وجعل المكيدة عشرة أجزاء فتسعة منها في القبط وواحدة في سائر الناس
وجعل الجفاء عشرة أجزاء فتسعة منها في البربر وواحدة في سائر الناس
وجعل النجابة عشرة أجزاء فتسعة منها في الروم وواحدة في سائر الناس
وجعل الصناعة عشرة أجزاء فتسعة منها في الصين وواحدة في سائر الناس
وجعل الشهوة عشرة أجزاء فتسعة منها في النساء وواحدة في سائر الناس
وجعل العمل عشرة أجزاء فتسعة منها في الانبياء وواحدة في سائر الناس

وجعل الحسد عشرة أجزاء فتسعة منها في اليهود وواحدة في سائر الناس
وقسم البخل عشرة أجزاء فتسعة منها في الفرس وواحدة في سائر الناس
وقسم الكبر عشرة أجزاء فتسعة منها في الروم وواحدة في سائر الناس
وقسم الطرب عشرة اجزاء فتسعة منها في السودان وواحدة في سائر الناس
وقسم الشبق عشرة أجزاء فتسعة منها في اليهود وواحدة في سائر الناس

---

(١٥) النويري ١/٢٩٣ .

الاهتمام بخصائص البلدان في العصر العباسي :

تابع العباسيون الأوائل الاهتمام بخصائص الأقاليم ، فنقل الطبري عن اسحاق بن موسى بن عيسى قوله : حدثت عن عبدالله بن الربيع قال : قال ابو جعفر لاسماعيل بن عبدالله صف لي الناس فقال :

أهل الحجاز مبتدأ الاسلام وبقية الناس
وأهل العراق ركن الاسلام ومقاتلة عن الدين
وأهل الشام حصن الأمة وأسنة الأئمة
وأهل خراسان فرسان الهيجاء واعنّة الرجال
والترك منابت الصخور وأبناء المغازي
وأهل الهند حكماء استغنوا ببلادهم فاكتفوا بها عجايبهم
والروم أهل كتاب وتدين ، نجاهم الله من القرب الى البعد
والأنباط كان ملكهم قدرنجا فهم لكل قوم عبيد(١٦) .

ومن خصائص المدن أقوال في العصر العباسي الأول
فقال بختيشوع : تسعة لا تخلو من تسعة :

قمي من رعون ، ويماني من جنون ، وواسطي من غفلة ، وبصري من جدل ، وكوفي من كذب ، وسوادي من جهل ، وبغدادي من مخرقة ، وخوزي من لؤم ، وطبري من رزق(١٧).

وقال الجاحظ في كتاب الامصار :

(١٦) الطبري ٣/٤٠٢ ــ ٣ .
(١٧) النويري ١/٢٩٥ .

الصناعة بالبصرة ، والفصاحة بالكوفة ، والرقة ببغداد ، والعجائب بمصر[18] .

وقال ابو حامد القاضي : اعياني ان أرى خراسانياً ذكياً وطبرياً رزيناً ، وهمدانياً لبيباً وبصريا ركيكا ، وكوفيا رئيسا ، وبغداديا سخيا ، وموصليا لطيفا ، وشاميا خفيفا ، وحجازيا منافقا ، وبدويا ظريفا[19] .

وردت من العصر العباسي نصوص عن صفات أهل مدن واقاليم الهضبة الايرانية : ويذكرون بالذات او باسم البلد ومقصودهم أهلها .

فقد حكى عن الجاحظ انه قال : كنا نعلم في المكتب كما نعلم القرآ احذروا : حماقة أهل بخارى ، وغل أهل مرو ، وشغب أهل نيسابور ، وحسد أهل هراة ، وحقد سجستان . وقال في كتاب الامصار :

.. الطرمدة بسمرقند ، والغي بالري ، والجفاء بنيسابور ، والحسد بهراة ، والمرؤة ببلخ ، والبخل بمرو .

وكان يقال : أربعة لا تعرف في أربعة

السخاء في الروم ، والوفاء في الترك ، والشجاعة في النبط ، والغم في الزنج[20] .

ونقل نشوان بن سعيد عن كتاب الأخبار للجاحظ كلاماً في خصائص الأمم ، فذكر أن أهل الحرف ليس فيهم تفاوت في الفهم والعقل والصناعة ولا معهما خش الخطأ وافراط النص مثل الذي تجد في أديانهم وفي عقولهم عند اختيار الاديان .

ثم ذكر اختصاص العرب في البيان ، واللغة ، وقيافة الاثر ، والشعر

(١٨) النويري ١/٢٩٤ .
(١٩) النويري ١/٢٩٤ .
(٢٠) النويري ١/٢٩٤ .

وصدق الحس وصواب الحدس وجودة الظن وبعد الفهم والمعرفة بمساقط النجوم والعلم بالأنواء وحسن المعرفة بما يكون منها للاهتداء ، كما أن لهم خط العربية ، والحفاظ لأنسابهم ، وانعدام العى فيهم ، وحرمة الامهات ، وروعة اللسان ، والبديهة ، والعجب بالخيل وايثارها وارتباطها(٢١) .

ثم ذكر خصائص اهل الهند في الحساب والنجوم والخط الهندي ، وفي الطب ، وحفظ التماثيل ، ونحت الصور مع التصاوير بالاصباغ ، والشطرنج ، وصفة السيوف ، وانواع من الرقص والخفة .

وخصائص الروم في الطب والحكمة والتنجيم وأصول اللحون وصنعة القرسطون وكيان الكتب والتصوير .

أما فارس فمعروفة بالسياسة وترتيب الامور والعلم (٢٢) .



(٢١) الحور العين ٢٢ ــ ٢٢٦ .
(٢٢) الحور العين ٢٢٧ ــ ٨ .